

الفصل الثاني الإعجاز العلمي القرآني

مقدمة:

القرآن الكريم كتاب الله إلى البشر كافة ولذا فقد تعددت أوجه الإعجاز فيه من إعجاز لغوى بلاغى بيانى يعرفه من يجيدون اللغة العربية، لإعجاز نفسى يصلح النفس البشرية ويهديها إلى الأمن والاستقرار النفسى ويحلل عللها ويعالجها، لإعجاز تاريخى يتجلى فى إظهار ما مضى وما لم يكن قد أتى بعد من أحداث، وإعجاز تشريعى متكامل لجميع نواحي الحياة لما تلح به حياة الفرد والمجتمع أما الإعجاز الغيبى فهو إخبار من عالم الغيب والشهادة بغيب الماضى والحاضر والمستقبل وكل هذه الأوجه من الإعجاز أتت فى نعمة موسيقية رائعة.. أما الإعجاز العلمى فهو خير دليل على صدق النبوة لما به من إشارات لحقائق علمية لم تظهر إلا فى عصرنا الحديث وهو رسالة من الله سبحانه وتعالى إلى من لا يؤمنون إلا بلغة العلم وسيلة للتخاطب فضلاً عن الاقتناع.

إذا كان «التفسير العلمى» هو الكشف عن معانى الآية فى ضوء ما ثبتت صحته من «نظريات» العلوم الكونية، فإن «الإعجاز العلمى» هو إخبار القرآن الكريم بحقيقة أثبتتها العلم التجريبي أخيراً، وثبت عدم إمكان إدراكها بالوسائل البشرية فى زمن الرسول ﷺ^(١).

ولما كانت أبحاث «الإعجاز العلمى» متعلقة بالتفسير العلمى للآيات الكونية ومتصلة بشرح الأحاديث فى هذه المجالات، فهى فرع من فروع التفسير وتقوم على مصادره.. ولما كانت قائمة على إظهار التوافق بين نصوص الوحي وبين الكشف العلمى التجريبي عن حقائق الكون وأسراره، فهى كذلك تقوم على مصادر العلوم التجريبية إلى جانب العلم المتعلق بتاريخها، كما تتصل أيضاً بعلم أصول الدين ويمكن الرجوع إلى كتب المؤلف فى الإعجاز العلمى للقرآن^(٢).

إن معجزة القرآن العلمية تظهر لأهل العلم فى كل عصر، والمتأمل فى أحوال العالم قبل نزول القرآن يرى التخلف الهائل فى مجال العلوم الكونية فى عصر الجاهلية ويرى كيف

(١) الزندانى (الشيخ عبد المجيد): المعجزة العلمية للقرآن والسنة. بحوث المؤتمر العالمى الأول للإعجاز العلمى فى القرآن والسنة. إسلام آباد. باكستان، ١٤٠٨ / ١٩٨٧م.

(٢) كتب عديدة منشورة للمؤلف فى دار المعارف.

اختلطت المعارف الكونية للإنسان بالسحر والكهانة والشعوذة والأوهام حتى غلبت الخرافة وسادت الأساطير على الفكر الإنساني في ذلك العصر، ولقد انتظرت البشرية طويلاً بعد نزول القرآن حتى ظهر الإعجاز العلمي في عصرنا وصدق الله تعالى مخاطباً رسوله الكريم وخاتم النبيين بقوله سبحانه:

﴿ وَمَا كُنْتُمْ تَتْلُوا مِنْ قَبْلِهِ مِنْ كِتَابٍ وَلَا تَخُطُّهُ وَبَيِّنَاتٍ إِذَا الْأَرْقَابُ الْمُبْطِلُونَ ﴿٤٨﴾ بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَمَا يَجْحَدُ بِآيَاتِنَا إِلَّا الظَّالِمُونَ ﴿٤٩﴾ وَقَالُوا لَوْلَا أَنْزَلَ عَلَيْهِ آيَاتٌ مِنْ رَبِّهِ قُلْ إِنَّمَا الْآيَاتُ عِنْدَ اللَّهِ وَإِنَّمَا أَنَا نَذِيرٌ مُبِينٌ ﴿٥٠﴾ أَوَلَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ يُتْلَى عَلَيْهِمْ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَرَحْمَةً وَذِكْرَى لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾ قُلْ كَفَى بِاللَّهِ بَيِّنَاتٍ وَبَيِّنَاتُكُمْ شَاهِدًا يُعَلِّمُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْبَطِلِ وَكَفَرُوا بِاللَّهِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (المنكيات)

وكم يُسر المؤمن في عصرنا وهو يشاهد حقائق الواقع في العلوم الكونية والإنسانية وقد جاءت مطابقة لما جاء به الوحي قبل ألف وأربعمائة سنة وصدق الله تعالى بقوله سبحانه

﴿ خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَجَلٍ سَأُورِيكُمْ آيَاتِي فَلَا تَسْتَعْجِلُونِ ﴿٢٧﴾ ﴾

(الأنبياء)

وقوله عز من قائل:

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سَيُرِيكُمْ آيَاتِهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا

تَعْمَلُونَ ﴿٩٣﴾ ﴾ (النمل)

ويتساءل الناس عن إعجاز القرآن فقال الغزالي: القرآن في الدلالة على الله تعالى كون ناطق، كما أن هذا الكون الضخم قرآن صامت وكلاهما ينبثق من ذات واحدة ويهدف إلى غاية واحدة.. وبهذا فهناك فرق يتمثل في إعجاز لغة القرآن كما يراه علماء وفصحاء اللغة العربية وبين إعجاز القرآن الذى يتجاوز قمة لا تصل إليها عيون البشر فضلا عن ألسنتهم.. ما هو بالشعر ولا هو بالنثر ولا هو بسجع كهان ولا هو بإنتاج إنسان ولا هو بالسحر.. فما هو السر فى إعجاز القرآن؟

يقول الكاتب الإسلامى أحمد بهجت فى كتابه (الله، الكون، الإنسان).

«فى البداية قيل إن اللفظ معجز فى ذاته ومعجز بمعناه ومعجز بما يحمله من حكمة، وقيل إن الإعجاز فى تشريعه العام المحكم الذى يتفق مع جميع الأزمنة ويصلح لكل الدهور والعصور، وقيل إن إعجازه يصدر عن نبوءاته الغيبية، وقيل إن إعجازه ينبع من علومه الكونية، وقيل إن إعجازه يتمثل فى موسيقاه الداخلية، وقيل إن إعجازه هو تصويره الفنى للمشاهد والأحداث يعرضها كما لو كنا أمام أشخاص يتحركون أمامنا أحياء كما كانوا بملامحهم النفسية وأعماقهم الدفينة، فإذا نحن أمام ما مضى. أو أمام حدث لم يأت بعد.. فالقرآن يصف الجنة مثلا فنحس أننا نتحرك داخلها، ويصف النار فتتشعر الجلود وتخضع القلوب، ويصف ما كان من أمر موسى وفرعون، فنحس أننا نعيش ذلك العصر داخل نفوس أبطاله لا خارجها، ويُشرِّع القرآن فإذا الرحمة والعدل والحب والسلام تولد من تشريعه للعباد.

وقد يصمت القرآن فى نفوس الناس - للأسف الشديد - أو يبعد عن حياتهم وقد يعزله الحاكم الظالم عن توجيه أقدار الناس فإذا الأرض تنن من الظلم والقسوة والخراب ويلعن الناس اليوم الذى ولدوا فيه، فإذا عاد القرآن إلى النفوس أحيائها بعد موتها مثلما تحبى المياه الأرض بعد موتها».

وكل ما يقال فى إعجاز القرآن الشامل صحيح كما فى حديث النبى محمد ﷺ واصفا القرآن كما يلى:

«كتاب الله فيه نبأ ما كان قبلكم، وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، وهو الفصل ليس بالهزل من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله، وهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذى لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق على كثرة الرد، ولا تنقضى عجائبه. من قال به صدق، ومن عمل به أجر، ومن حكم به عدل».

فهل بعد ذلك فضل وإعجاز وهدى ورحمة.. صدقت يا رسول الله.

والقرآن الكريم معجزة تخاطب الناس كلهم على اختلاف مكانهم وزمانهم وعقولهم، فالأمة يسمع القرآن فيفهم دعوته إلى عبادة الله وتوحيده، ويفهم تشريعه لأنه سهل، والمثقف يقرأ القرآن فيرى وراءه توحيد الله خلاصا للبشر من الطغاة وإعلانا لحرية الإنسان وحقوقه، والعالم يقرأ القرآن فيجد في آياته معجزات علمية لم تظهر إلا في عصرنا الحديث، ورجل الفن يقرأ القرآن فيبهره هذا التجسيد للمشاهد وهذا التصوير الفني وموسيقى الحوار ونغم العبارات، وينظر المتصوف في القرآن فإذا هو أمام أكثر من دنيا تبدأ بالتوبة وتمر على الحب وتنتهي بالفناء، وهكذا تجد كل طبقة من طبقات الوعي والمعرفة في القرآن عمقا معجزا تسيح فيه بالعقل بملايين السنين.

ومن المسلم به أن القرآن الكريم هو أصل النهضة الإسلامية لأن كل فروع المعرفة الإسلامية منبثقة منه. فعنى القراء والكتبة الأبرار في وقت نزوله بضبط كلماته ومخارج حروفه وعدد آياته وسوره وأحزابه وأنصافه وأرباعه، وعنى أهل النحو بالعرب منه والمبنى واللازم والمتعدى وغير ذلك من أصول النحو والصرف، واعتنى المفسرون القدماء بألفاظه وتعدد معانيها، واعتنى الأصوليون بعلوم التوحيد وما بالقرآن من أصول الدين وأحكام اللغة والمجاز فتكلموا أيضا في التخصيص والأخبار والنص والظاهر والمجمل والمحكم والمتشابه، وسموا ذلك أصول الفقه، واعتنى آخرون بقرص القرون السابقة والأمم الخالية الواردة بالقرآن، وتنبيه آخرون لما بالقرآن من الحكم والأمثال والمواعظ لخدمة الدعوة ونظر قوم إلى ما بالقرآن من جزالة اللفظ وبديع النظم فاستنبطوا منه المعاني والبيان والبديع.. كما نظر آخرون للآيات الكونية على أنها دليل على عظمة الخالق بذكر بدائع صنعه طريقا ملموسا للهداية والرشاد في المقام الأول ودليلا على الإعجاز العلمي للقرآن لإثبات صدق النبوة وعالمية الرسالة وخاصة في عصر العلم^(١). فإذا لم يكن كل هذا معجزا فكيف يكون الإعجاز، ولقد وصف الله تعالى كتابه الكريم بألفاظ متعددة كالقرآن والكتاب والفرقان والذكر، كما وصفه بالإحاطة والشمول كما في قوله تعالى:

﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ﴾ (الأنعام: ٣٨)

وقوله عز وجل:

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تَبْيِينًا لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى

لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ (النحل)

(١) انظر مؤلفات الكاتب في هذا المجال، الناشر: دار المعارف ودار الفكر العربى.

وقوله سبحانه :

﴿ وَكُلُّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا ۝١١٢ ﴾ (الإسراء)

حقا لقد كان وسيظل القرآن الكريم الذى جاء به النبى الأسمى سببا للعلوم الإسلامية ومرجعها كلها، فما من تخصص إلا ونظر أهله فى القرآن وأخذوا منه مادة علمهم، وهذا هو الإعجاز، وصدق تعالى حين يصف كتابه بالنور كما فى قوله سبحانه :

﴿ يَتَأَهَّلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ

مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُوا عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ

۝١١٠ يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ

الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ۝١١١﴾ (المائدة)

والكلام فى الإعجاز تتسع آفاقه ولا يمكن لعالم مهما كان حظه من العلم أن يبلغ الغاية أو يقف على النهاية من كلام الله الذى ليس كمثل شىء، وهو السميع البصير.. فأعجاز القرآن أمر خارق للعادة يظهره الله سبحانه وتعالى مصداقا لنبوة محمد ورحمة للعاملين ويشرى للمؤمنين وإنذارا للكافرين.. وسوف يشهد العلماء على اختلاف تخصصاتهم وعصورهم أن القرآن هو الحق كما فى قوله تعالى :

﴿ وَلِيَعْلَمَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَيُؤْمِنُوا بِهِ

فَتُخْبِتَ لَهُ قُلُوبُهُمْ وَإِنَّ اللَّهَ لَهَادٍ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ ﴾

(الحج : ٥٤)

كما أن العلماء المتدبرين للقرآن شهود على صدق النبوة كما فى قوله تعالى :

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَى بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ

وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ۝٤٣﴾ (الرعد)

ومعجزة القرآن أنه مفصل على علم يقينى إلهى كما فى قوله تعالى :

﴿ وَاقْدُرْ جُنَّتَهُمْ بِكِتَابٍ فَصَّلْنَاهُ عَلَىٰ عِلْمٍ هُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾

(الأعراف : ٥٢)

وهذه المعجزة متجددة كما ذكرنا حتى قيام الساعة، وعلينا أن نحمد الله كلما عرفنا جانبها من إعجاز آيات القرآن كما فى قوله تعالى:

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِيكُمْ عَائِدْتِيهِ فَتَعْرِفُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَفِيلٍ عَمَّا

تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ (النمل)

وحرف السين هنا يعنى المستقبل حين يكشف الله الغطاء عن أسرار هذه الآيات وإعجازها، وعلى المكذبين للقرآن ولنبوذة محمد أن يتدبروا القرآن؛ ولهذا يلومهم الله سبحانه فى آيات كثيرة كما فى قوله:

﴿ أَفَلَا يَتَذَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبِ أَقْفَالُهَا ﴿٢٤﴾ ﴾ (محمد)

وقوله سبحانه للمكذبين للقرآن دون أن يتدبروه أو يعلموا تفسيره وأسراره:

﴿ بَلْ كَذَّبُوا بِمَا لَمْ يُحِيطُوا بِعِلْمِهِ وَلَمَّا يَأْتِهِمْ تَأْوِيلُهُ ﴿٣٩﴾ ﴾ (يونس)

(ولمّا) هنا نافية جازمة، أى إن المكذبين يجهلون لأن التأويل لم يأت مباشرة بعد نور التنزيل وسيأتى يقينا فى المستقبل كما فى قوله تعالى:

﴿ فَقَدْ كَذَّبُوا فَسَيَأْتِيهِمْ أَنْبَاءُ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦﴾ ﴾ (الشعراء)

فالإعجاز متجدد بنص القرآن والسنة ليشهد دائما فى كل عصر لنبوذة محمد ﷺ كما فى قوله تعالى: ﴿ لَكِنَّ اللَّهَ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ يَعْلَمُهُ ط ﴾ (النساء: ١٦٦)

وهنا يكمن الإعجاز فهو سبحانه وتعالى منزل القرآن وهو سبحانه محيط بالكون أى بالمكان والزمان كما فى قوله تعالى:

﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ

إِنَّهُ كَانَ عَفْوَرًا رَجِيمًا ﴿٦﴾ ﴾ (الفرقان)

وهكذا تسطع بينة الوحي المنزل على محمد ﷺ بما فى القرآن الكريم من علم إلهى يدركه الناس على مراحل فى كل زمان ومكان تبيانا لكل شىء كما فى قوله تعالى:

﴿ مَا فَرَطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ ﴿٢٨﴾ ﴾ (الأنعام)

حقاً فالقرآن معجز من أية ناحية أتيناها. وتعدد إعجازه أمر إلهي مقصود ليناسب طبيعة الرسالة الإسلامية باعتبارها الرسالة الخاتمة لرسالات السماء، فالإسلام عام لكل البشرية ولهذا لا بد أن يبقى إعجاز القرآن خالداً ومتجدداً.

الإعجاز العلمي يناسب الرسالة الخاتمة والمستويات البشرية المختلفة:

ولما ختم الله النبوة بمحمد - ﷺ - ضمن حفظ دينه، وأيده ببينة كبرى تبقى بين أيدي الناس إلى قيام الساعة، قال تعالى:

﴿ قُلْ أَىُّ شَىْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللّٰهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَأُوحِيَ إِلَيَّ

هَذَا الْقُرْءَانُ لِأَنْذِرْكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ ﴿ (الأنعام: ١٩)

وقال تعالى: ﴿ لَكِنِ اللّٰهُ يَشْهَدُ بِمَا أَنْزَلَ إِلَيْكَ أَنْزَلَهُ وَيَعْلَمِهُ ﴾ (النساء: ١٦٦)

وفى هذه الآية التى نزلت رداً على تكذيب الكافرين بنبوة محمد ﷺ بيان لطبيعة المعجزة العلمية التى تبقى بين يدي الناس، وتتجدد مع كل فتح بشرى فى آفاق العلوم والمعارف ذات الصلة بمعانى الوحي الإلهي.

قال الخازن عند تفسير هذه الآية:

لكن الله يشهد لك يا محمد بالنبوة بواسطة هذا القرآن الذى أنزله عليك.

وقال ابن كثير:

«فالله يشهد لك بأنك رسوله الذى أنزل عليه الكتاب، وهو القرآن العظيم.. ولهذا قال: أنزله بعلمه: أى فيه علمه الذى أراد أن يطلع العباد عليه من البينات والهدى والفرقان، وما يحبه الله ويرضاه، وما يكرهه ويأباه، وما فيه من العلم بالغيب من الماضى والمستقبل.»

وقال أبو العباس ابن تيمية:

هى شهادته سبحانه بأنه أنزله من عنده، وأنه أنزله بعلمه، فما فيه من الخبر هو خير عن علم الله ليس خبراً عن دونه، وهذا كقوله تعالى:

﴿ فَإِذَا لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنزِلَ بِعِلْمِ اللّٰهِ وَأَن لَّا إِلَهَ

إِلَّا هُوَ ۗ فَهَلْ أَنْتُمْ مُّسْلِمُونَ ﴿١٤﴾ (هود)

والمعنى: أنزله سبحانه وتعالى بعلمه، كما يقال: فلان يتكلم بعلم، فهو سبحانه أنزله بعلمه
كما قال تعالى:

﴿ قُلْ أَنْزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ ﴾

(الفرقان: ٦)

وإلى هذا المعنى ذهب كثير من المفسرين:

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلِتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾ ﴾ (ص)

وبيئة القرآن العلمية يدركها العربي والأعجمي، وتبقى ظاهرة متجددة إلى قيام الساعة.
ففي القرآن أنباء نعرف المقصود منها لأنها بلسان عربي مبين، لكن حقائقها وكيفياتها
لا تتجلى إلا بعد حين.

قال تعالى:

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ ﴿٨٧﴾ وَلِتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾ ﴾ (ص)

قال الفراء في تفسير (الحين) الذي ذكرته الآية أنه:

بعد الموت وقبله أى لتظهر لكم حقيقة ما أقول بعد حين أى فى المستأنف كما فى قوله
تعالى:

﴿ لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴿١٧﴾ ﴾ (الأنعام)

و شاء الله أن يجعل لكل نبأ زمناً خاصاً يتحقق فيه، فإذا تجلى الحدث ماثلاً للعيان أشرقت
المعاني التى حملتها الحروف والألفاظ فى القرآن.

وقال ابن جرير الطبرى:

﴿ لِكُلِّ نَبَأٍ مُسْتَقَرٌّ ﴾ يقول: لكل خبر مستقر، يعنى قراراً يستقر عنده ونهاية ينتهى

إليها فيتبين حقه وصدقه. وسوف تعلمون. يقول: وسوف تعلمون أيها المكذبون بصحة ما أخبر
به.

وقال ابن كثير:

قال ابن عباس: أى لكل نبأ حقيقة، أن لكل خبر وقوع ولو بعد حين كما قال تعالى:

﴿ وَلِتَعْلَمَنَّ نَبَأَهُ بَعْدَ حِينٍ ﴿٨٨﴾ ﴾ (ص)

وإلى هذا ذهب كثير من المفسرين: أنباء الأرض والسماء فى القرآن والسنة تتجلى فى عصر الاكتشافات..

وإن خبر القرآن والسنة وما فىهما من أوصاف لما فى الأرض والسماء هو نبأ إلهى عما فى الأرض والسماء ممن هو أعلم بما خلق فىهما من أسرار.

ولقد زخر القرآن والسنة بأنباء الكون وأسراره، وتفجرت فى عصرنا علوم الإنسان باكتشافاته المتتالية لآفاق الأرض والسماء، فحان الحين لرؤية حقائق العلم الذى نزل به الوحي فى القرآن والسنة^(١).

ولقد قبلت البشرية اليوم العلم طريقاً إلى معرفة الحق، بعد أن كبّلت طويلاً بأغلال التقليد الأعمى، فشيدت للعلم البناء، وفرغت لخدمته العلماء، ورصدت له الأموال، وما إن وقفت العلوم التجريبية على قدميها حتى بدأت فى تأدية دورها الذى حدد الله لها فى جعلها طريقاً إلى الإيمان به، وشاهداً على صدق رسوله - ﷺ. كما فى قوله سبحانه:

﴿ سَتَرِيهِمْ ءَايَاتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾

(فصلت: ٥٣)

لقد نزل القرآن فى عصر انتشار الجهل وشيوع الخرافة والكهانة والسحر والتنجيم فى العالم كله، وكان للعرب النصيب الأوفى من هذه الجاهلية والامية كما بين القرآن ذلك بقوله:

﴿ هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ

وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾

(الجمعة)

لقد نزل القرآن على قوم استماتوا فى الانصراف عنه دفاعاً عن أصنامهم التى كانوا عليها عاكفين، وتعلقاً بما آمنوا به من خرافات السحر والكهانة والتنجيم، وأوهام الألام والتشاؤم من بعض الشهور، ومن مرور بعض أنواع الحيوان، وجادلوا عن ضلالتهم فى طلب الحماية من ملوك الجان فى الشعاب والوديان، وهذا مثل من الضلال الفكرى الذى كان عليه العرب عند نزول القرآن.

وأما من جهة المستوى العلمى الذى كانوا عليه فيشرحه الرسول - ﷺ - بقوله «نحن أمة أمية لا نكتب ولا نحسب». وبعد أن حثهم رسول الله - ﷺ على القراءة والكتابة والعلم

(١) للمؤلف كتب فى هذا المجال منشورة بدار الفكر العربى، دار المعارف، الهيئة المصرية العامة للكتاب.

والحساب لم يجدوا أمامهم من أدوات الكتابة إلا الجلود والأحجار الرقيقة وسعف النخل وعليها كانوا يكتبون.

فى ذلك العصر وعلى تلك الأمة نزل الوحي، وفيه علم الله يصف أسرار الخلق فى شتى الآفاق. ويجلى الخلق فى النفس البشرية، يقرر البداية والنهاية، ويصف أسرار الحاضر، ويكشف غيب المستقبل الذى ستكون عليه سائر المخلوقات.

وعندما دخل الإنسان فى عصر الاكتشافات العلمية. وامتلك أدق الأجهزة للبحث العلمى، وتمكن من حشد الجيوش من الباحثين فى شتى الآفاق، وجمعهم فى ميادينهم على اختلاف الأجناس يبحثن عن الأسرار المحجوبة فى آفاق الأرض والسماء وفى مجالات النفس البشرية، يجمعون المقدمات ويرصدون النتائج فى رحلة طويلة عبر القرون فإذا ما تكاملت الصورة، وتجلت الحقيقة وقعت المفاجأة الكبرى بتجلى أنوار الوحي الإلهى الذى نزل على محمد ﷺ قبل أكثر من ألف وأربعمائة عام بذكر تلك الحقيقة فى آية من القرآن أو بعض آية، أو فى حديث لرسول الله ﷺ أو بعض حديث بدقة علمية معجزة، وعبارات مشرقة، وبهذا أنبأنا القرآن كما فى قوله تعالى:

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ كَانَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ نَمٌّ كَفَرْتُمْ بِهِءَ مَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ هُوَ فِي

شِقَاقٍ بَعِيدٍ ﴿٥٢﴾ سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ

لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوْ لَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿٥٣﴾ ﴾ (فصلت)

فهيا نتدبر بعض معانى هذا النص القرآنى:

لقد ورد الأفق فى اللغة بمعنى ما ظهر من نواحي الفلك وأطراف الأرض، وآفاق السماء نواحيها، وآيات الله فى آفاق الأرض والسماء تحمل معانى ثلاثة:

الأول: المخلوقات التى خلقها الله فى شتى آفاق الأرض والسماء مثل قوله تعالى:

﴿ وَمِنْ آيَاتِنَا خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَثَّ فِيهِمَا مِنْ دَابَّةٍ وَهُوَ عَلَىٰ

جَمْعِهِمْ إِذَا يَشَاءُ قَدِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ (الشورى)

الثانى: آيات القرآن التى تخبر وتصف أنواع المخلوقات، وهى آيات كثيرة منها قوله

تعالى:

﴿ وَأَنَّا لَمَسْنَا السَّمَاءَ فَوَجَدْنَا فِيهَا مَلَأَتْ حَرًّا شَدِيدًا وَشُهَبًا ﴿٨﴾ ﴾ (الجن)

الثالث: البيئات والمعجزات التي يظهرها الله تصديقا لرسوله ﷺ في شتى آفاق الأرض والسماء من حقائق الخلق حيثما بعد حين.

قال الشوكاني: ﴿سَتْرِيهِمْ عَائِنَتِنَا فِي الْأَفَاقِ﴾: سنريهم صدق دلالات صدق القرآن (وعلاوة كونه من عند الله) في الآفاق وفي أنفسهم.. والمعنى: سنريهم آياتنا في النواحي وفي أنفسهم.

وقال ابن كثير: ﴿سَتْرِيهِمْ عَائِنَتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ﴾: أي سنظهر لهم دلالاتنا، وحججنا على كون القرآن حقا منزلا من عند الله على رسول الله ﷺ بدلائل خارجية في الآفاق.

وقال الزمخشري: ومعناه أن هذا الموعود من إظهار آيات الله في الآفاق وفي أنفسهم سيرونه ويشاهدونه فيتبينون عند ذلك أن القرآن تنزيل عالم الغيب الذي هو على كل شيء شهيد، أي مطلع ومهيم يستوى عنده غيبه وشهادته فيكفيهم ذلك دليلا على أنه حق وأنه من عنده. بهذا قال كثير من المفسرين عند تفسير قوله تعالى: ﴿حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ﴾ وقال أبو العباس ابن تيمية:

وأما الطريق العياني فهو أن يرى العباد من الآيات في الآفاق والأنفس ما يبين لهم أن الوحي الذي بلغه الرسول عن الله حق كما قال تعالى:

﴿سَتْرِيهِمْ عَائِنَتِنَا فِي الْأَفَاقِ وَفِي أَنْفُسِهِمْ حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ أَوَلَمْ يَكْفِ

بِرَبِّكَ أَنَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾ (فصلت: ٥٣)

أي: أو لم يكف بشهادته المخبرة بما في علمه، وهو الوحي الذي أخبر به الرسول ﷺ فإن الله على كل شيء شهيد وعليم به.

ولقد قرر عطاء وابن زيد أن معنى الآفاق المذكورة في الآية هو ما نقله عنهما القرطبي في تفسيره. يعنى أقطار السموات والأرض من الشمس والقمر والنجوم والليل والنهار والرياح والأمطار والرعد والبرق والصواعق والنبات والأشجار والجبال والبحار وغيرها. وروى هذا عنهما عدد من أئمة التفسير.

وفي الجالين:

﴿سَتْرِيهِمْ عَائِنَتِنَا فِي الْأَفَاقِ﴾ أقطار السموات والأرض من النيران والنبات والأشجار.

(وفي أنفسهم): من لطيف الصنعة وبديع الحكمة. فهذه آيات الله في كتابه تتحدث عن آياته في مخلوقاته، وتتجلى بمعجزة علمية بينة تسطع في عصر الكشوف العلمية في آفاق الكون.

الانبهار بالقرآن حتمى والمعجزة واقعة:

إننا على وعد من الله عز وجل بأن يرينا آياته، فيحقق لنا - بهذه الرؤية - العلم الدقيق
بمعاني هذه الآيات، قال تعالى:

﴿ وَقُلِ الْحَمْدُ لِلَّهِ سِيرِكُمْ وَأَيْدِيهِ فَتَعَرَّ فُونَهَا وَمَا رَبُّكَ بِغَنِيْلٍ عَمَّا

تَعْمَلُونَ ﴿١٣﴾ (النمل)

ومخلوقات الله من آياته سبحانه، ومنها ما جاء فى القرآن وصفًا ونبأ عن آياته عز وجل فى
السموات والأرض. وروى الطبرى عن ابن نجیح وابن جريج عن مجاهد أنه قال فى تفسير هذه
الآية:

﴿ سِيرِكُمْ وَأَيْدِيهِ فَتَعَرَّ فُونَهَا ﴾ قال: فى أنفسكم والسماء والأرض والرزق.

وقال ابن كثير فى تفسير الآية: أى الحمد لله الذى لا يعذب أحداً إلا بعد قيام الحجة عليه
والإنذار إليه، ولهذا قال تعالى: ﴿ سِيرِكُمْ وَأَيْدِيهِ فَتَعَرَّ فُونَهَا ﴾، كما قال تعالى:

﴿ سَرُّهُمْ وَأَيْدِيَنَا فِى الْأَفَاقِ وَفِى أَنْفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ الْحَقُّ ﴾ (فصلت: ٥٣)

ومما سبق يتبين لنا أن البشرية على موعد من الله متجدد ومستمر يكشف آياته فى الكون
وفى كتابه أمام الأبصار؛ لتقوم الحجة وتظهر المعجزة القرآنية.

إن الوحى فى القرآن والسنة يفيض بالخبر عن أوصاف المخلوقات، وهذه الأبحاث العلمية
التجريبية تتجه بدراساتها وبحثها إلى نفس الميدان الذى وصفه القرآن وتحدث عنه الرسول ﷺ
فاللقاء مع الانبهار بالقرآن حتمى والمعجزة لا شك واقعة.

لقد جاءت العلوم البشرية التجريبية شاهدة بصدق ما أخبر به القرآن من تحريف سائر
الأديان، وجاءت شاهدة ومجلية لدقائق المعانى فى الآيات والأحاديث النبوية ذات التعلق
بالأمور الكونية. وهذه مناكب دعاة الإسلام على اختلاف تخصصاتهم العلمية تتزاحم لبيان هذه
المعجزات العلمية، وبدأ عدد من كبار علماء الكون من غير المسلمين يتجهون إلى نفس الميدان،
فمنهم من أسلم، ومنهم من شهد بحقيقة المعجزة العلمية، حقا لقد بدأ عصر تجلى معانى كثيرة
من آيات القرآن الكريم الكونية ومن الأحاديث النبوية - كما وعد بذلك الحق سبحانه وتعالى:

﴿ لِكُلِّ نَبِيٍّ مُّسْتَقَرٌّ وَسَوْفَ تَعْلَمُونَ ﴾ (الأنعام: ٦٧)